العرب
الجمعة 2021/07/02
السنة 44 العدد 12107

عندما تستخدم إيران كلّ أوراقها...

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

سيتوجّب على من يعتقد أنّ المنطقة مقبلة على أي استقرار من أيّ نوع مراجعة حساباته. ما يدعو إلى مثل هذه المراجعة تصميم إيران على خلق واقع جديد على الأرض في غير دولة عربيّة، خصوصا في العراق وسوريا ولبنان... واليمن. يشمل التصميم الإيراني، على خلق مثل هذا الوضع الجديد في الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربيّة، تكريس الوجود الجدّي لـ"الحرس الثوري" في قطاع غزّة عبر "حماس" و"الجهاد الإسلامي".

لم يأت رئيس المكتب السياسي لـ"حماس" إسماعيل هنيّة إلى بيروت من فراغ. جاء برسالة واضحة فحواها أنّ إيران هي الطرف الأقوى في "حماس" وهي صاحبة القرار في غزّة. لا يدلّ على ذلك أكثر من غياب أي برنامج سياسي واضح للحركة والاكتفاء بإطلاق الشعارات الطنانة التي هي في الواقع شعارات إيرانيّة. هذه الشعارات من نوع تحرير فلسطين كلّ فلسطين أو "حقّ العودة". يحتاج "حقّ العودة" إلى تغيير جذري في موازين القوى في المنطقة والعالم ليس في متناول اليد، لا اليوم ولا غدا، للأسف الشديد.

بكلام أوضح، جاء هنيّة إلى بيروت ليقول إنّ "حماس" في لبنان برعاية "حزب الله" وإنّ لبنان نفسه برعاية الحزب ولم يعد سوى جرم يدور في الفلك الإيراني...

لم يكن العرض العسكري لـ"الحشد الشعبي" في العراق قبل أيام سوى دليل على أنّ "الحشد" مجموعة من الميليشيات المذهبيّة التابعة في معظمها لـ"الحرس الثوري" الإيراني. أكثر من ذلك، بات "الحشد" جزءا لا يتجزّأ من تركيبة الدولة العراقية. ما الذي يستطيع رئيس الوزراء العراقي مصطفى الكاظمي عمله في سياق سعيه لدور عراقي وسطي في المنطقة، دور يقرّب العراق من دول الخليج العربي ومن مصر والأردن ولا يغضب إيران في الوقت ذاته؟

ستكون مهمّة الكاظمي ورئيس الجمهوريّة برهم صالح في غاية التعقيد في ظلّ هذا الإصرار الإيراني على لعب دور محوري في إدارة العراق. تبدو إيران مصرّة على دورها المهيمن في العراق على الرغم من أنّ هذا الدور مرفوض من أكثرية الشعب العراقي، بما في ذلك الشيعة العرب. لكنّ العراق دخل الحسابات الإيرانيّة من زاوية مختلفة هي زاوية المفاوضات الأميركية – الإيرانية التي ترفض "الجمهوريّة الإسلاميّة" توسيعها لتشمل صواريخها الباليستية وطائراتها المسيّرة وسلوكها خارج حدودها. تعتقد إيران بكلّ بساطة أن لديها من الأوراق ما يجعلها قادرة على إجبار إدارة بايدن على عقد صفقة تقتصر على العودة إلى الاتفاق في شأن ملفّها النووي الموقّع في العام 2015 من جهة ورفع العقوبات الأميركية عنها من جهة أخرى.

ليس معروفا بعد هل تسمح الأوراق التي في حوزة إيران بإجبار الإدارة الأميركية على صفقة بشروط "الجمهوريّة الإسلاميّة". في انتظار اكتشاف طهران أنّ هذا الأمر ليس ممكنا ستكون المنطقة مسرحا لتجاذبات تتّصف بالحدة ليس قصف الأميركيين لمواقع لـ"الحشد الشعبي" في منطقة الحدود العراقية – السوريّة سوى جزء منها. ستتابع إيران محاولاتها لتثبيت مواقعها في سوريا مستفيدة من الموقف الروسي الحائر. لا يعبّر عن هذا الموقف أكثر من رضوخ موسكو لرغبة طهران في إجراء انتخابات رئاسيّة سوريّة مزورة تجدّد لبشّار الأسد سبع سنوات أخرى.

سارت روسيا في المخطّط الإيراني ولا تجد حاليا من خيار سوى السعي للتفاوض مع الإدارة الأميركية في شأن مستقبل سوريا ومعابر المساعدات إليها. تكمن مشكلة موسكو ببساطة في أنّها لا تعرف أن الإدارة الأميركيّة تعرف. أوّل ما تعرفه الإدارة الأميركية أن روسيا وضعت نفسها في خدمة إيران في سوريا وأن إيران تسيطر عمليّا على النظام السوري وعلى أدقّ التفاصيل المرتبطة بالأجهزة السوريّة.

لكن المكان الذي تلعب فيه إيران أوراقها بحذاقة ودهاء هو اليمن. ليس ما يشير إلى أن الحوثيين على استعداد للتخلي عن الدولة التي أقاموها في شمال اليمن. على العكس من ذلك، إنّهم يعززون وجودهم في هذه الدولة ولم يتوقفوا عن أمرين. أوّلهما إطلاق الصواريخ والطائرات المسيّرة في اتجاه الأراضي السعودية والآخر متابعة هجومهم على مدينة مأرب الاستراتيجيّة.

تعمل إيران على إقامة وجود دائم لها في اليمن. يتبيّن أكثر في كلّ يوم أنّ الحوثيين ليسوا سوى أداة طيّعة في يدها وأنّهم في إمرتها...

لا شكّ أن إيران تقرأ خريطة التحولات في المنطقة بطريقة جيّدة. أعطت خطة الانسحاب العسكري الأميركي من أفغانستان كلّ الإشارات الخطأ في الوقت الخطأ. إضافة إلى ذلك نشرت "وول ستريت جورنال" أخيرا معلومات عن نيّة الإدارة الأميركية سحب قوات وبطاريات صواريخ "باتريوت" من قواعد عدّة في المنطقة، بما في ذلك قواعد في المملكة العربيّة السعوديّة والأردن.

هل خيار الاستسلام لإيران خيار أميركي؟ الواضح أن مثل هذا الخيار غير وارد. لكن لا بد من الانتظار قبل أن تكتشف "الجمهوريّة الإسلاميّة" بعد تولي الرئيس الجديد إبراهيم رئيسي مهمّاته قريبا أنّ خيار الاستسلام الأميركي ليس واردا.

ليس معروفا متى ستكتشف إيران ذلك. ولكن في انتظار ذلك ستستخدم كلّ أوراقها دفعة واحدة. سيكون هناك المزيد من التجاذبات والتوتّر في المنطقة. سيكون هناك مزيد من الضغوط تمارسها إيران في كلّ الاتجاهات لتأكيد أنّها القوّة الإقليمية المهيمنة في الشرق الأوسط والخليج. الأكيد أنّ محاولة الحوثيين الاستيلاء على مأرب لن تتوقف قريبا وأنّ السعي لابتزاز السعوديّة سيستمرّ وأن استخدام الروس في سوريا سيتحول إلى سياسة إيرانيّة ثابتة. إضافة إلى ذلك ستسعى إيران إلى تأكيد أن لبنان مجرّد مستعمرة في جيبها تفعل فيها ما تشاء. أكثر من ذلك، ما يحلّ بلبنان واللبنانيين آخر همّ لدى إيران ما دام الهدف الوصول إلى صفقة مع "الشيطان الأكبر"، صفقة في خدمة مشروع توسّعي لا أفق من أيّ نوع له...

سطوة الأيديولوجيا في الأزمة اليمنية

صالح البيضاني
صحافي يمني

إذا تم تحييد العوامل والتداخلات الخارجية والإقليمية في مشهد الصراع اليمني لن تتبقى في نهاية المطاف إلا القوى ذات الخلفيات والتوجهات العقائدية التي تستمد قوتها وديمومتها من سطوة الأيديولوجيا وقدرتها على التأثير على شرائح واسعة من اليمنيين الذين لم يجدوا على الأرجح طريقا ثالثا ليسلكوه بين دروب المتصارعين من مختلف التوجهات.

ومع تراجع المكونات غير الدينية في الساحة اليمنية تبرز اليوم بشكل لافت القوى التي ظلت لأكثر من نصف قرن على الأقل تعمل في خلفية المشهد وتؤسس لحالة من النفوذ والتحشيد الشعبي والثقافي والفكري، مستفيدة من الصراع الذي دب في أوساط التيارات اليسارية والقومية أو القوى التقليدية التي ظلت تتصدر واجهة المشهد اليمني منذ ستينات القرن الماضي.

ففي شمال اليمن يسيطر الحوثيون على مناطق واسعة من بينها العاصمة اليمنية صنعاء التي اجتاحتها ميليشياتهم في سبتمبر من العام 2014 بعد جولات طويلة من الصراع العسكري التي خاضوها في مواجهة الدولة اليمنية بين عامي 2004 و2009، حيث قدموا أنموذجا لحكم الجماعة العقائدية التي تتكئ على مزيج ثقافي وفكري من المذهبين الزيدي والجعفري مع طفرة سياسية مستمدة من مبادئ الثورة الإسلامية في إيران التي امتد تأثيرها إلى اليمن في منتصف الثمانينات من القرن العشرين.

ويستند الحوثيون اليوم في الكثير من شؤونهم الدينية والسياسية على المحاضرات التي ألقاها مؤسس الجماعة حسين بدرالدين الحوثي قبل مقتله على يد الجيش اليمني في حرب صعدة الأولى في العام 2004، حيث حول أتباعه تلك المحاضرات إلى نصوص مكتوبة تعرف بالملازم الحوثية التي يتم تدريسها على نطاق واسع وإلزام الطلاب والشباب اليمنيين في مناطق سيطرة الجماعة بقراءتها كجزء من نظام تلقين إلزامي يعرف بالدورات الثقافية التي تعد بوابة الانضمام للفكر الحوثي.

وزمنيا يمكن القول إن بدايات تسلل تأثير ثورة الخميني في إيران إلى بعض المنتمين للمذهب الزيدي في اليمن، وخصوصا "الأسر الهامشية" في الشمال، جاءت بالتوازي مع تسلل تيارات تأثير دينية أخرى للبلد الذي كان ينقسم أتباعه في الأغلب بين مذهبين رئيسيين هما الشافعي والزيدي، إلى جانب أقليات يهودية وإسماعيلية وبهائية.

فبينما شهدت "السلفية" مرحلة ازدهار هائلة في شمال اليمن في تلك الفترة، مع تراجع تأثير المدارس الصوفية التقليدية، وجدت شخصيات وأسر دينية زيدية في محافظة صعدة على وجه الخصوص ضالتها في مبادئ وأفكار الخمينية وتحديدا ما يتعلق بتعزيز الجانب الثوري السياسي الكامن لديها، كما اعتبرت تلك الطفرة الفكرية التي مرت بها الحاضنة الزيدية اليمنية ردة فعل على المد السلفي الذي وصل إلى محافظة صعدة ذاتها التي احتضنت أكبر مدرسة سلفية في اليمن، أسسها الشيخ مقبل بن هادي الوادعي بعد حادثة جهيمان في الحرم المكي التي كان أحد المتهمين بالمشاركة فيها.

وقد لعبت الحرب الأفغانية دورا فارقا في إنتاج مخرجات جديدة في الساحة الفكرية اليمنية، حيث شهدت جبال أفغانستان ولادة جيل جديد من التيارات السلفية الجهادية في اليمن التي مزجت بين تأثيرات السلفية التقليدية وبين مدرسة الإخوان المسلمين، ومن تحت عباءة هذا التحول المفصلي خرجت بعد ذلك طلائع تنظيمي القاعدة وداعش في اليمن.

وفيما تأسست الحوثية الجديدة التي نشاهدها اليوم في اليمن مطلع التسعينات، كمزيج من أفكار المذهب الزيدي والتاريخ السياسي لدول الإمامة وتأثير المذهب الجعفري، إضافة إلى تأثيرات الثورة الإسلامية في إيران، يمتد وجود جماعة الإخوان المسلمين في اليمن لفترة مبكرة، حيث ظهرت البذور الأولى لحضور الفكر الإخواني في اليمن في أربعينات القرن العشرين، لكن هذا الحضور ظل خافتا ونخبويا قبل أن يشهد أبرز مراحل ازدهاره الحقيقية في السبعينات والثمانينات عندما لعبت "المعاهد العلمية" دورا مهما في نقل تجربة الإخوان المسلمين في اليمن من الطور النخبوي إلى الدور الشعبي، من خلال تخريج الآلاف من الطلاب المتأثرين بأيديولوجيا جماعة الإخوان السياسية والفكرية، عبر نظام تعليم ديني موازٍ كان الإخوان يسيطرون عليه بشكل كامل، في معزل عن وزارة التربية والتعليم، وهو الأمر الذي استمر لقرابة ثلاثة عقود، وتعزز في عقد الثمانينات حين استعان الرئيس اليمني السابق علي عبدالله صالح بالإخوان ومنظومتهم العسكرية والفكرية، لمواجهة المد الأيديولوجي الشيوعي القادم من جنوب اليمن، والتصدي لأعباء ما عُرف بحرب الجبهة في المناطق الوسطى في شمال اليمن التي امتد إليها التأثير اليساري.

> الأيديولوجيا تمكنت من السيطرة على توجهات المجتمع اليمني بصورة أوسع بعد التسعينات حيث تلاشى تأثير التيارات اليسارية والقومية بالتوازي مع تعاظم مد التيارات الدينية الإخوانية والسلفية بمختلف امتداداتها الجهادية والأصولية

ولم يستطع الرئيس صالح التحرر من أعباء تحالفاته الاضطرارية مع الإخوان إلا بعد أن استعان بهم للمرة الأخيرة في حرب صيف 1994 التي استطاع فيها تصفية نفوذ الحزب الاشتراكي اليمني في جنوب اليمن، وفي عام 2001 تم حل المعاهد العلمية التابعة للإخوان وتوحيد نظام التعليم في اليمن، لكن بعد أن أخرجت هذا المعاهد أجيالا من المنتمين إلى فكر الإخوان الذين شاركوا في إسقاط نظام صالح بعد ذلك.

ويمكن الجزم بأن سطوة الأيديولوجيا تمكنت من السيطرة على توجهات المجتمع اليمني بصورة أوسع بعد التسعينات، حيث تلاشى تأثير التيارات اليسارية والقومية بالتوازي مع تعاظم مد التيارات الدينية، سواء الإخوانية أو السلفية بمختلف امتداداتها الجهادية أو الأصولية الزيدية (الحوثية)، في الوقت الذي راهن فيه الرئيس صالح على سطوة الدولة ونفوذها عبر تأسيس حزب المؤتمر الشعبي العام كتيار وسطي ليس امتدادا لأي تأثيرات فكرية قادمة من خارج اليمن، على الرغم من إدراكه لطبيعة المجتمع اليمني وبنيته الثقافية التي غزتها حمى الأيديولوجيا.

غير أن تأثير كل القوى غير العقائدية بدا محدودا وبدون الفاعلية والزخم والاندفاع الذي تغذيه الأحزاب العقائدية لأتباعها، وهو الأمر الذي دفع صالح للتحالف مع الإخوان في مواجهة اليسار والحزب الاشتراكي، قبل أن يتحالف في 2015 مع الحوثيين لمواجهة الإخوان، وكان ما حصل عليه من حصيلة لهذه التحالفات أن تعرض لمحاولة اغتيال في 2011 على يد الإخوان ونجا من الموت بأعجوبة، قبل أن يقتل في ديسمبر 2017 على يد الحوثيين، ما يكشف خطورة اللعب مع الثعابين الأيديولوجية!

وفي ظل هذه المعطيات، ومع بروز الأبعاد العقائدية في الحرب اليمنية بشكل متزايد ولافت، يمكن القول بشيء من الثقة إن أكبر معضلة تواجه البلد الذي يعاني من حالة حرب وتشظٍ منذ سبع سنوات تقريبا تكمن في البعد الأيديولوجي للصراع، وتكدس القوة الحقيقية في أيدي أطراف تعمل وفقا لأهداف عقائدية ولا تؤمن بالمسارات السياسية، في ظل تبدد الخيارات التي يمكن أن يلجأ إليها اليمنيون لبناء دولة مدنية على ركام هائل من الأحقاد والنزاعات والأتباع العقائديين.